

اللغة الإنجليزية في مصر

الأستاذ محمد محمود زتون

اللغة الإنجليزية في مصر — أو على حد تعبير وزارة المعارف —
« اللغة الأوروبية الأولى » — قد أصبحت غير ذات موضوع
لأنها استنفدت جميع أغراضها ، وفقدت صلاحيتها ، فلا مناص
من إلغائها ، لأنها أول معقل للاستعمار في بلادنا سبق إلى
الإنهيار

وإذا كانت الظروف اليوم قد أتاحَت لقادة الرأي في مصر أن
تعمل جاهدة على المطالبة بإلغاء وتحرير العقليات المصرية منها على
أثر إلغاء معاهدة القل والاحتلال ، واتفاقيتي القهر والاستعمار ،
فإن لصاحب هذا القلم شرف السبق إلى الكتابة في هذا الموضوع
في وقت كان الجهر فيه به ناعدا ضريا من المجازفة

وكان ذلك في ٣ يوليو سنة ١٩٤٨ يوم كانت جريدة
« الإخوان المسلمون » لليومية ترفع لواء الحرية ، في هذا المترك
الصاحب من الأفكار ، قلت يومئذ بالحرف الواحد :

« إن هذه اللغة قد دخلت مصر وستخرج منها وكأن لم
تكن ، لأنها لم تهدف إلى التثقيف وتبادل روائع الأفكار
وبدائع المرفان وإنما كان هدفها الحقيقي هو إشاعة القهر والخوف
والفرع والخلع والذل والانكسار إلى غير ذلك من مترادفات
« تخطيم الأعصاب » في بلد لا يزال بحير وعافية كعصر

ونظرا لما حق لدينا من دراسة العلوم الاجتماعية ومن بينها
« علم اللغة » وما أسكل من تطورات وانحرافات ولهجات تبنت
قوانينها الصارمة ، فإننا بالقياس إلى هذه القوانين نرى أن اللغة
الإنجليزية قد أريد بها أن تشد شدوذ أهائها عن قوانين اللغة
فلبست مسح الملاء وقفايز الساسة ، « إمعانا في إحكام القيود
والإغلال على الشعوب المستضعفة جميعا وفي آن واحد ، ونسويدا
للبرمجية في بعضها على المدنية في البعض الآخر ، فقد ظلت هذه
اللغة تدرس في مصر أكثر من نصف قرن منذ بدء الاحتلال
وكانت لغة التدريس في جميع المواد ماعدا اللغة العربية وما

يتصل بها . »

ولقد فطنت الجمعية العمومية إلى أساليب الاستثمار الإنجليزي
منذ فجر الحركة القومية ، فطالبت الحكومة في مارس سنة
١٩٠٧ بمجمل التعليم في المدارس بالربية ، وعلى ذلك الرأي
اجتمعت الأمة الناهضة ؛ ولكن مما يؤسف له أن قام أحد أذئاب
الاستعمار فقال فيها قال :

« إن الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الأجنبية لحض رغبتها
أو اتبساطا لشهوتها ، ولكنها فعلت ذلك مراعاة لمصلحة
الأمة .. » (١)

واستطرد يقول — وهو ساهمه الله بمن وكل إليه زمام
هذه الأمة — « وإذا فرضنا أنه يمكننا أن نجمل التعليم من
الآن باللغة العربية وشرعنا فيه فعلا فإنا نكون قد أسأنا إلى
بلادنا وإلى أنفسنا إساءة كبرى لأنه لا يمكن للذين يتعلمون
على هذا النحو أن يتوظفوا في الجمارك والبوسطة والمحاكم المختلطة
والمصالح المدينة المختلفة التابعة للحكومة »

على أن الأمة الممثلة يومئذ في الجمعية العمومية قد خذلت هذا
الاعتراض بإجماع رائع هز أركان التاريخ وتبوأ مكانة من
الحركة القومية

وعلى الرغم من هذا فإن هذه اللغة الاستثمارية قد مضت في
طريقها في غفلة من سدة القومية فاعتبروها « اللغة الأجنبية
الأساسية » حتى كانت سنة ١٩٣٥ حيث ابتدع « ميخائيل
وست » طريقته الأمريكية اليهودية التي بها وحد النطق على
أسس خاصة . وذلك لتحقيق المساواة في الاستثمار والاستغلال
والاستغلال ولتكون العدالة شاملة في الظلم عملا بالقاعدة المشهورة
« إذا هم الظلم كان عدلا »

ومالبت الإنجليز — بفضل هذه البدعة الأمريكية — أن
قذفوا بملايين الكتب المدرسية الإنجليزية إلى مصر والسودان
وفلسطين والحبشة وجنوب أفريقيا وأرغندة وكينيا وأستراليا
والهند ، وبذلك ألغيت كل الحواجز الجبركية أمام هذه البضاعة
الإنجليزية الموحدة في هذه الأقطار ، فإذا نحن منذ ذلك التاريخ
أمام تيار جارف من خرافات وأساطير وخزعبلات فرضوا علينا

(١) من عبد الرحمن الرافعي بك في كتابه « معطن كامل »

أن نحشرها حشرا في أدمته الناشئين الأبرياء

يسأل التلميذ استاذاه : هل من المقول أن (جاك) إذا قتل الدب وأخذ قلبه ورمى به في النار تخرج حبيثته منها .. وهل صحيح أن (كاليبان) و (آريل) عفريتان من مغاربت (الجزيرة المسحورة) كما جاء في رواية (المصنفة) التي دمجتها براعة (شكسبير) ؟ ..

يا بني .. هذا كلام إنجليز ؛ وليس عليك إلا أن تتعلم اللغة ودعك من خرافاتهم . وهنا يريد المدرس الفيلسوف أن يشرح لتلميذ السنة الأولى « فلسفة التناسخ والحلول » الشائعة في عقائد البرهمنيين والبوذيين . ولكن كيف يستطيع مدرس أن يشرح هذا اللغز الغامض لذلك الناشئ « البري » ؟ .. وهنا ينفض كلاهما على حسرة ملحة ، ألم صارخ ، والأمر بينهما الله وحده

وهكذا أراد الإنجليز أن يظفروا قلوبنا بعلقة من القطاران الأسود المصنوع من خرافات الهمجية الأولى ، وبذلك تموت الروح الدينية ، وعقيدة التوحيد في جوانح أبناء الأمة فيشب الواحد منهم كافرا بالله والرسول والأنبياء والملائكة واليوم الآخر ، كافرا بالمروءات والمثل العليا ومكارم الأخلاق متسارعا بدروس الكفر البواح التي يتلقاها في مدارس الدولة

وليت هذا الناشئ « السكين » يتعلم هذا الكفر في كتاب واحد أو اثنين ، ولكن الدولة القيمة على العقل والروح والبدن تأتي إلا أن تقرر تلميذ السنة الأولى الابتدائية بفيض من الكتب الإنجليزية بعضها رئيسي والبعض الآخر إضافي

وأذكر أن الوزارة كانت توزع على تلاميذ السنة الثانية سبعة كتب إنجليزية منها ثلاثة للمعمل بها في المدرسة ، والباقي للاطلاع الخارجي بالنزل ، ويطلب الله أن هذا الاطلاع المزعوم ما كان له من وجود إلا في خيصال « مينغائيل وست » ومن يدورون في فلسك من صنائم الاستعمار الثقافي

والنتيجة الطبيعية أن التلميذ لم يفتح كتب (المغاربت) إلى آخر العام حتى إذا بدأت العطلة سقى حسابه مع هذه الكتب وباعها مقابل عدة أقراص من السمناج والحلوى . وأما الدولة فهي التي دفعت لتجار الكفر ومهامرة الاستعمار دماء الفلاحين ثمنا

لبضاعة كلها غش وزيف

وأساليب الاستثمار - على المهد - بها أهدم من حمل الثقال وأضيق من شراك الصيد على فريستها ، فهي تصيد العقول والقلوب ؛ وتمتص الدماء وتسقزف الأموال ، وتقتل الأرواح وتشل النشاط وتخدر الأعصاب ، وتستأصل الحمية من الأنوف إلى غير ذلك من ضروب النصب والاحتيال

وليس أدل على ذلك من طريقة الامتحانات المتبعة في مراحل التعليم : ففي المرحلة الابتدائية يسهل على التلميذ اجتياز الامتحان لأن طرق وضع الأسئلة مرسومة محدودة ، وبكفي أن يحفظ التلميذ مفرداته المقررة عليه ، وأن يرف كليات الاستفهام وقواعد الزمن ليكون من الناجحين

وهذا التسهيل المقتل ليس إلا خطة موضوعة تتبها في المرحلة الثانوية أسلاك شائكة والنمام فائكة : ففي بدنها يرغم التلميذ على كتابة موضوعات إنشائية - ولم يتعلم قبلا تكوين جملة - ويرغم أيضا على الإجابة على أسئلة الأجرومية المقدة - وكان محظورا عليه أن يعلم شيئا مطلقا من المصطلحات . فهو يتجربها في مدى أشهر . معدودات وتكثر ضحايا الامتحان في بداية هذه المرحلة ، وتعود أساليب الاستثمار إلى قواعدها سالمة حسب الخطة المرسومة

وإذا جاز هذه المرحلة والتحق بالجامعة ، فإن مدمة عنيفة تجببه عندما يحاول متابعة استاذاه في شرحه بهذه اللغة فيسقط في يده ولا يجد ما يستعين به على الدراسة التي تخصص لها إلا بعد مشقة وعناء

مراحل كلها صخور وأشواك ملقاة في الطريق وعلى الجانبين لتوهم الناشئ « بالضعف والنباهة » ، وتقذف في نفسه الرعب والقل والانكسار فتتصلب أعصابه ، ويتبلد ذهنه

وتسند الوزارة كل سنة إلى تغيير الكتب الإنجليزية التي تدرس فيها طلبة الثقافة والتوجيهية . فالحكمة من ذلك ؟ الأهم أنه ابتزاز أموال الدولة سنويا باسم العلم . وإلا فأى ضرر عقل أو تربوي إذا استمر تدريس كتاب واحد بمهنة لمدة سنوات ؟ وهل كتب المطالعة العربية المقررة أساءت إلى عقلية

خاصية من خصائص لغة الانجليز كما وضعنا ذلك في مقالنا من « اللغة والفكر » (٣) حيث يقول الانجليز : pay attention أى ادفع انتباهك ويقولون pay a visit أى ادفع زيارة ، كأن الانتباه والزيارة نفرد تدفع

ولو قدر لهذه اللغة البقاء في بلادنا أكثر من ذلك بهذا الوضع وبذلك المكانة فلها نسي إلى نفسها أكثر مما نحن إليها ، لأنها لغة أشاعت الفكر في النفوس ، وسدت مسالك التفكير ، وضيق من آفاق العقيدة ، وزعزعت من أركان الآداب السامية والأخلاق الفاضلة ، واستعبدت المدرسين حتى صاروا كآلات العلماء حتى لقد استعاضت عنهم بالفونوغراف وليس أماننا الآن إلا خطوة عملية واحدة لرد اعتبارنا وحفظ كرامتنا كأمة ذات سيادة ، وهذه الخطوة هي ألا نجعل لهذه اللغة في بلادنا أكثر من الوضع الذي صارت إليه بلادها ، فقد أصبحت انجلترا أفقر الدول بعد أن كانت أغناها ، وأصبحت ذيلاً بعد رأس ، وصار لها في بلادنا « سفير » بعد أن كان لها « مندوب سام » وأصبحت في نظر العالم كله وباء . وبلاء ، نلا أقل من أن تكون لنتها في بلادنا كذلك شر بلاء وأخبت وباء

ومن العار أن يكون عدد حصص هذه اللغة أكثر من عدد حصص اللغة القومية . ومن العار أيضاً أن يطالب بحل الجيوش الاستعمارية بينما أكبر أصنام الاستعمار في مصر لا يزال حياً بعيد . ومن العار أن يتعطل شبابنا إلى معرفة مواطن البطولة في تاريخنا المجيد ، فلا يجحدون ما يروى فليلهم بينما يجرحهم قصص لغة لا يستعينون لها طمها ولا لونا ولا رائحة

ومن موجبات حمد الله وشكره أن هذه اللغة لم تتمكن من جوهر حياتنا ولم تنجح في أن تكون لغة نخاطب ولا لغة كتابة ... (٤)

هذا ما قلناه بالحرف الواحد منذ نشرنا هذا القلم لخدم هذا الصنم القلبيط ، ولعل الحكومة المجاهدة تستطيع اليوم أن ترفع

(٣) الرسالة ن ٥ زائد ١٢ رونية سنة ١٩٥٠

(٤) الإخوان المسلمون : التاريخ المذكور

التقليد لجرد استمرار تدريسها لسنوات عديدة ؟

أراد المستعمرون أن يؤخروا مصر إلى عصر ما قبل التاريخ حيث الجمعية الررحية والفكرية ، وهذا هو الوضع الذي جاز على مصر ولم تنبه إلى خطورته ، ولولا بقية من إيمان ، وشماخ من عقل « لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً »

وفي إبان الحرب الماضية كان الأساتذة الانجليز أنفسهم رسل دعاية للاستعمار في مصر ، فهذا مستر سكيف رئيس قسم الأدب الانجليزى يبشر تلامذته من طلبة الآداب بأحسن وأروع ما كتب في هذا الأدب قديمه وحديثه ، ذلك هو « خطاب من طيار لأمه » وقد تطوع بترجمته إلى العربية سادة هيكمل باشا ونشره الاتحاد الانجليزى المصرى

ركان مقررا على طلبة التوجيهية منذ سنوات مقالات عن « مشروع بيفردج » و « التسامح الاجتماعي » و « الخدمات العامة » ولم يتكلف أحد من قادة الفكر وسادة الراى عناء الاطلاع على ما يدرس للشباب وتبيين مدى ما نرى إليه هذه الأفكار الراقدة ، ولم يمن أحدهم يوماً بنقد ما يراه منه ففتقنا مما لدينا من ثراث اجتماعى نستطيع به أن نجابه هذه الأفكار السطحية ونندفعها بالحق . وهل الزكاة التي افترضها الإسلام حاضرة — إذا أحسن أداؤها — عن تعديل الأوضاع الاقتصادية وكفالة الأمن والسلام

وابس غلوا ، منا إذ نقول إن اللغة الانجليزية وآدابها لا تصلح لأن تكون حاملاً من عوامل التثقيف أو التهذيب في مصر لأنها تقوم على مبادئ هدامة نذكر منها : فرق نعد — تمسكت فتمسكت — المصلحة أولاً — اعمل بما أقول لا كما أقول — حتى أنت يا بروتس —

كل ذلك وما إليه إنما ينطوى على الدس والخبث والذفاق والمادية والأنانية والدولية الأنموانية ، وقد سبق لى أن قلت في مقال « عصابة ررتشيلد » (٢) بأن الانجليز هم الورثة الذين تبنا اليهودية التي فككت أوصال أوروبا في القرن الثامن عشر كما سبق أن قلت إن هذه اليهودية تمثل في النهضة المادية وهي

(٢) الرسالة ن ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٥٠